■ الباب الحادي عشر

الخـــلاص

THE AUTOBIOGRAPHY OF

MALCOLM X

أخيراً كتبت خطاباً لإلايْجا محمد الذي كان يقيم في ٦١١٦ جنوب شارع ميشجان بشيكاجو في ذلك الوقت. كتبت ذلك الخطاب ذا الصفحة الواحدة خمساً وعشرين مرة على الأقل في محاولة لجعله مقروءاً ومفهوماً. كان خطي قبيحاً لدرجة أنني شخصيًّا كنت أجد صعوبة في قراءته الشيء الذي يخجلني تذكره اليوم. أما معرفتي بقواعد اللغة وتهجية الكلمات فقد كانت أسوأ من خطي. المهم أنني وعلى قدر ما سمحت به مقدرتي في التعبير ذكرت له في ذلك الخطاب أن إخواني وأخواتي حدثوني عنه كما اعتذرت عن رداءة الخط واللغة في الخطاب.

وصلني رد مطبوع بالآلة الكاتبة من مستر محمد وكان لذلك أثر سحري عليَّ خاصة عندما رأيت التوقيع « مبعوث الله.» رحب بي في عالم الحق والمعرفة وأضاف شيئاً جعلني أفكر في معناه. قال ما معناه أن السجين الأسود رمز لجريمة المجتمع الأبيض التي ترمي إلى قهر الرجل الأسود وحرمانه بحيث يبقى جاهلاً وعاطلاً ثم يتحول إلى مجرم. أوصاني بالصبر والشجاعة ووضع ضمن خطابه مبلغ خمس دولارات وذلك شيء يفعله مستر محمد مع نزلاء السجون الذين يكتبون إليه في جميع أنحاء البلاد وربما حتى اليوم.

كان أفراد أسرتي يكتبون إليَّ بانتظام ويحثونني أن: « أتجه إلى الله .... صل واجعل الشرق قبلتك ».

obeikan.com

كانت الصلاة أصعب اختيار بالنسبة إليّ . قبول أفكار الإيْجا وتعاليمه لم يكن شيئاً صعباً وكل ما عليّ كان أن أقول : « ذلك حق » أو « لم يخطر لي ذلك من قبل » ... أما الركوع وثني الركبتين في الصلاة فقد كانا تمريناً شاقاً اقتضى مني إتقانه أسبوعاً كاملاً أنا الذي كنت في السابق لا أنحني إلا لألتقط عتلة أو أفتح قفلاً للسطو على بيت ما . كنت أُجبر نفسي على الركوع ثم يزدحم رأسي بالخجل والحياء فأعود واقفاً . أن يركع الشيطان ويقر بذنبه ويطلب الرحمة من الله ، ذلك من أصعب الأشياء . الآن أتحدث عن هذا الموضوع بسهولة ولكنه كان صعباً عليّ أنا الذي كنت الشر مجسداً . حاولت مرة وأخرى أن أجبر نفسي على القيام بوضع المصلي لله وعندما نجحت أخيراً في ذلك لم أجد ما أقوله لله .

في السنوات التالية أصبحت مثل الناسك في سجن نوفوك . وفي حياتي لم أجد نفسي ووقتي مشغولين بمثل تلك الدرجة وما زلت أتعجب للسرعة التي بدأت حياتي وطريقة تفكيري السابقتان تفقدان سلطانهما على مثل فص من الملح قد ذاب وكأنما ذلك المجرم والمحتال شخص آخر سواي . كنت أندهش حينما أجد نفسي أحياناً أفكر في ذلك المحتال كشخص ليست له صلة بي .

أصبحت أجد صعوبة في التعبير عن شعوري في الخطاب اليومي الذي أرسله لإلايْجا محمد بالإضافة إلى خطاب آخر كنت أكتبه يوميًا لأحد إخواني أو أخواتي . وفي كل خطاب يصلني منهم كنت أحيط بشيء من تعاليم الإيْجا محمد كما كنت أقضي الساعات أدرس صورته الفوتوغرافية . أنا بطبعي شخص عملي وإذا اقتنعت بشيء أشعر بأن عليّ أن أفعل شيئًا لتحقيقه ولأنه لم يكن بإمكاني أن أفعل الكثير وأنا في السجن ، فقد بدأت حملة خطابات بعثتها إلى كل الزعران الذين عرفتهم في عالم الإجرام مثل سامي القواد ، جون هيوز صاحب محل القمار في بوسطن ، « أقفز بثبات » وعدد من باعة المخدرات . كتبت إليهم عن الله والإسلام وعن مستر محمد وبما أنني لم أكن أعلم بمكان سكنهم فقد كتبت عناوين الحانات التي عرفتهم فيها في هارلم وروكسبري .

لم يصلني رد على أي من خطاباتي فالمحتالون والزعران عادة أجهل من أن يكتبوا خطابا . عندما ترى بعضهم – دهاة وأنيقي الهندام – ستظن أنهم من رجال المال في وول ستريت ومع ذلك تجدهم يبحثون عمن يقرأ لهم إذا وصلهم أي خطاب . بالإضافة إلى ذلك أنا بنفسي ما كنت سأرد على خطاب يتحدث عن أشياء مثل « الرجل الأبيض الشيطان» إذا كنت في موقفهم . وأنا متأكد أن رد فعلهم لخطاباتي كان هو أنهم ظنوا أن بي مسا من الجنون أو أنني أقوم بتمثيلية ما حتى يعتقوني من السجن .

في سنواتي في سجن نوفوك لم يسألني ولم يعلق أي من المسئولين على خطاباتي رغم أنها طبعاً كانت تمر على الرقابة . ومع ذلك أنا متأكد أنهم كانوا يراقبونها

ويكتبون ذلك في الملفات التي يحتفظون بها عن الزنوج الذين يغيرون دينهم بسبب تعاليم مستر إلايْجا محمد. لكنني في قرارة نفسي كنت أعتقد أن السبب الحقيقي هو أن الرجل الأبيض كان يعلم أنه الشيطان . بعد ذلك بمدة كتبت خطابات إلى عمدة بوسطن وحاكم ولاية ماساتشوستس وحتى الى هاري س. ترومان . طبعاً لم يردوا عليَّ وأشك في أنهم رأوا خطاباتي . خربشت لهم شيئاً عن مسئولية المجتمع الأبيض عن وضع الرجل الأسود في تيه أمريكا الشمالية .

قادتني كتابة هذه الخطابات إلى التفكير في اكتساب تعليم « من منازلهم». صرت أشعر بإحباط متزايد لعدم مقدرتي على التعبير في خطاباتي عما ما أشعر به خاصة تلك التي أكتبها لمستر إلايْجا محمد . في الشارع كنت أفصح أزعر أجذب الانتباه حتى إذا لم أقل شيئاً ، أما الآن وأنا أحاول كتابة لغة بسيطة ، لم أفقد فصاحتي وحسب بل أنني فشلت حتى في توصيل المعنى . كيف أبدو وأنا أكتب باللغة العامية وكأنني أقول شيئاً مثل « شوف يا زول ، خليني أحكيلك عن قط يدعى إلايْجا محمد » .

عندما يسمعني الناس اليوم وأنا أتحدث أمامهم أو في التلفاز أو عندما يقرأون حديثاً قلته ، سيظنون أنني درست في الجامعة بينما كل ذلك كان حصيلة دراستي في السجن . بدأت تلك الدراسة في سجن شارلستاون عندما جعلني حديث بمبي أغير من حصيلته من المعرفة . كان بمبي يسيطر على الحديث وكنت أحاول تقليده ولكن أي كتاب التقطه أجده يحتوي على عدة جمل تكتظ بالكلمات غير المفهومة وكأنها باللغة الصينية . كنت أتجاوز هذه الكلمات ولكني أجد في النهاية أنني لم أفهم إلا القليل مما يقوله الكاتب . عندما حضرت إلى سجن نوفوك كنت ما زلت وكأني أتصنع القراءة وحتى هذه المحاولة كنت حتماً سأتركها بعد مدة وجيزة لولا الإصرار والدوافع التي لدي .

قررت أخيراً أن خير ما أفعله هو أن أتحصل على قاموس وأدرسه لأتعلم بعض الكلمات الجديدة . كذلك رأيت أن عليَّ أن أحاول وأحسن من مقدرتي الكتابية . إنه لأمر محزن أنني لم أكن أستطيع حتى الكتابة في سطر معتدل . هاتان الفكرتان دفعتاني لأطلب قاموساً وبعض الدفاتر والأقلام من مدرسة السجن . عند استلامي القاموس قضيت يومين وأنا أقلب صفحاته في حيرة . لم أكن أظن أن هنالك كلمات بهذه الكثرة ولم أدر أي من هذه الكلمات ينبغي عليَّ معرفتها . أخيراً قررت أن أفعل شيئاً ما وبدأت في نقل الكلمات ومعانيها.

بدأت ببطء وبخط معوج ، بصبر وأناة نقلت على الدفتر كل كلمة في الصفحة الأولى من القاموس بما فيها علامات الترقيم . قضيت يوماً كاملاً في ذلك . بعد ذلك وبصوت عال قرأت كل كلمة كتبتها ثم أعدت قراءة كتابتي لنفسي أكثر من مرة .

وفي صباح اليوم التالي صحوت وأنا أفكر في هذه الكلمات وكلي فخر بنفسي

ليس لأنني كتبت كل هذه الكلمات فحسب بل لأنني كتبت كلمات لم أكن أعلم حتى بوجودها من قبل . بالإضافة إلى ذلك وبمجهود بسيط استطعت تذكر معنى كثير من تلك الكلمات كما أنني راجعت معنى الكلمات التي لم أتذكر معناها . من الغريب أن كلمة (خنزير الأرض أبو ذقن) في أول صفحة من القاموس ، تقفز إلى ذهني الآن ومعها صورته . حيوان ذو ذنب طويل ، له أذنان طويلتان يحفر حفرة في الأرض ، يعيش على النمل الأبيض الذي يصطاده بإخراج لسانه مثله مثل الحيوانات آكلة النمل الأخرى .

سحرني ما فعلت فواصلت ونقلت الصفحة الثانية وعاودني نفس الشعور السابق وأنا أدرسها . مع كل صفحة أنقلها كنت أتعلم أشياء عن الناس والأماكن والحوادث التاريخية. في حقيقة الأمر القاموس ليس إلا موسوعة مصغرة . وأخيراً أكملت الفصل الخاص بحرف الألف وبدأت حرف الباء . استمررت في ذلك العمل حتى نقلت القاموس بأكمله وقد ازدادت سرعتي في الكتابة بفضل تلك الممارسة . وما بين ما كتبته في الدفاتر والخطابات التي كتبتها فيما تبقى لي من مدة حبسي ، لابد أنني قد كتبت مليوناً من الكلمات .

كان من المحتم بعد ذلك أن تزداد قاعدتي الكلمية وأصبحت أجد أن بإمكاني أن التقط كتاباً وأفهم ما يود الكاتب أن يقول . والذين يقرأون كثيراً بإمكانهم تخيل العوالم التي انفتحت أمامي ، ودعني أقول لك شيئاً هو أنني منذ ذلك الوقت لم أدع لحظة فراغ تفوتني بدون أن أقرأ شيئاً كنت أقرأ في المكتبة وأقرأ في سريري ولا يستطيع أحد أن يجعلني أرفع رأسي مس كتاب حتى لو كان يحمل أسفيناً . مرت الشهور وأنا لا أشعر بالوقت في السجن فقد ملأت على خطاباتي وتعاليم مستر محمد وقراءاتي وزيارات إخوتي الوقت . في حقيقة الأمر لم أشعر في حياتي بالحرية مثلما كنت أشعر تلك الأيام .

كانت مكتبة السجن في مبنى مدرسة السجن التي يقوم فيها أساتذة من جامعات هارفارد وبوسطن بتدريس مواد مختلفة . في نفس المبنى أيضاً كانت تقام مناظرة أدبية بين النزلاء مرة في الأسبوع وستندهش حينما تعلم كيف كان النقاش يحتدم بين النزلاء المتناظرين والمستمعين فوق موضوعات مثل : « هل يجب إطعام اللبن للرضع؟ » .

في المكتبة كانت توجد على الرفوف كتب عن أي موضوع مع أن مجموعة باركهيرست التي أوصى بها للمكتبة كان معظمها مازال في صناديق في مؤخرة المكتبة ، آلاف من الكتب القديمة والبعض من الكتب العتيقة وقد تغير لونها ، مجلدة بما يشبه ورق البرشمان النفيس ويبدو أنه كان لباركهيرست اهتمام بالتاريخ والدين كما يظهر في كتبه . كانت عنده الأموال والرغبة فجمع مكتبة بها كتب نادرة تفخر أية جامعة بامتلاكها . وكما قد تتوقع من تركيز إدارة

سجن نوفوك على الإصلاح ، كان أي سجين يظهر اهتماماً بالقراءة يلقي معاملة حسنة وتشجيعاً من سلطات السجن . لذلك كنت تجد في ذلك السجن عدداً كبيراً من النزلاء المطلعين خاصة الذين يشتركون في المناظرات إلى درجة أنه قيل عن بعضهم أنه موسوعة تمشي على رجلين وكان يُحتفى بهم في السجن . عندما تفتح هذا العالم أمامي ، عالم القراءة والاستيعاب ، قرأت في الأدب عدداً لا يحصى من الكتب أكثر مما يقرأه طالب في دراسته الجامعية . وعندما انتقلت إلى القراءات الجادة كان أكثر ما يضايقني هو إطفاء النور في العاشرة من مساء كل يوم والذي دائماً يجدني وأنا في منتصف موضوع مثير . من حسن الحظ أن هنالك ضوءاً في الممر خارج غرفتي ينعكس في الغرفة وكان كافياً لأن أستطيع القراءة به بعد أن تعودت عيناي عليه . لذلك كنت أجلس على الأرض بالقرب من الباب عندما تطفأ الأنوار .

كان حرس السجن يمرون من أمام الغرف كل ساعة وكنت عندما أسمع صوت أقدامهم أقفز إلى سريري وأتصنع النوم وبمجرد أن يفوت الحرس أترك السرير وأنزل لأجلس على الأرض وأواصل القراءة تحت الضوء المنعكس من الخارج لمدة ثمان وخمسين دقيقة أخرى قبل أن يظهر الحارس مرة ثانية . كنت استمر كذلك حتى الثالثة أو الرابعة صباحاً ثم أنام ثلاث أو أربع ساعات هي كل ما أحتاج من النوم . لقد نمت ساعات أقل وأنا في شوارع هارلم وروكسبري فلماذا لا أسهر مع الكتب الآن .

تؤكد تعاليم مستر محمد على حقيقة أنه تم تبييض التاريخ ، وأن الرجل الأبيض عندما كتب التاريخ أزال اسم الرجل الأسود عمداً . كان ذلك من أكثر كتابات مستر محمد التي هزتني . لم أنس عندما كنت أنا والطلبة البيض ندرس تاريخ الولايات المتحدة ونحن في الصف السابع في مدرسة ميسون ، لم أنس كيف أن تاريخ الزنوج غطى في فقرة واحدة وكيف أن المدرس أضحك الطلاب بحديثه عن أقدام الزنوج الكبيرة التي لا تترك أثراً على الأرض حينما يمشون بل حفراً . ذلكم هو سبب انتشار تعاليم مستر محمد في الولايات المتحدة بين كل الزنوج سواء أصاروا من أتباعه أم لا ، لأنها صدى حقيقيًا عند كل زنجي . لن تجد زنجياً بالغاً في أمريكا أو حتى أبيض يعرف حقيقة دور الرجل الأسود في التاريخ . من جانبي ، ما إن سمعت جملة « تاريخ الرجل الأسود المجيد » إلا وصرت أنقب في المكتبة عن كل كتاب إشباعاً لنهمي لمعرفة تاريخ الرجل الأسود .

ما زلت أذكر أول مجموعة من الكتب بهرتني وقد اشتريت تلك المجموعة فيما بعد ومازلت احتفظ بها في البيت حتى اليوم ليقرأها أطفالي وهم يكبرون . إنها سلسلة كتب تسمى « **عجائب الدنيا** » ملأى بالصور عن الآثار التاريخية والتماثيل التي تصور عادة أناساً غير أوروبيين . وجدت كتباً مثل **قصة الحضارة** من تأليف ويل ديورانت وقرأت كتاب هـ.ج. ولز **موجز التاريخ** وأعطاني كتاب و. ب. دو بوا **روح الشعب الأسود**

لمحة عن تاريخ السود قبل مجيئهم إلى أمريكا . كذلك فتح كتاب كارتر ودسون تاريخ الزنوج عيني على وجود إمبراطوريات سوداء قبل إحضار زنوج كأرقاء إلى الولايات المتحدة وعن نضال الزنوج من أجل الحرية في السابق .

قرأت أيضاً كتاب ج. أ. روجرز **الجنس والعنصر** ذا الثلاث مجلدات الذي يتحدث عن التناسل بين الأجناس منذ عهد المسيح وعن كون أيوب رجلاً أسود كان يروي القصص الخرافية وعن فراعنة مصر ، عن الإمبراطوريات القبطية المسيحية ، عن أثيوبيا أقدم حضارة سوداء حية وعن الصين أقدم حضارة حية على الإطلاق .

قادتني تعاليم مستر محمد عن كيفية خلق الرجل الأبيض إلى قراءة كتاب جريجور مندل **اكتشافات في الجينات** (تعلمت عن الجينات تحت حرف الجيم في القاموس) . درست كتاب هذا القس النمساوي بعناية أكثر من مرة خاصة بعض أجزائه التي ساعدتني على فهم قوانين الوراثة وكيف أنك إذا بدأت بشخص أسود يمكنك أن تصل إلى شخص أبيض إلا أنه من المستحيل إيجاد رجل أسود من أبيض – لأن الكروموسونات البيضاء انحسارية – وبما أن الجميع متفقون أن الإنسان الأول كان فرداً واحداً فمعنى ذلك واضح .

في العام الماضي كتب أرنولد توينبي ، المؤرخ البريطاني الشهير في صحيفة **نيويورك تايمز** واستعمل كلمة تبييض في وصفه للرجل الأبيض وكانت كلماته بالضبط كالآتي : « الإنسان الأبيض (أي المبيض) ذو الأصل الأوروبي الشمالي .....» أشار توينبي أيضاً إلى قارة أوروبا كشبه جزيرة آسيوية قائلاً أنه ليس هنالك شيء اسمه أوروبا من وجهة النظر الجغرافية وأنك إذا نظرت إلى خريطة العالم سترى أن أمريكا ما هي إلا امتداد لآسيا . (في نفس الوقت نقول أن توينبي من الذين ساعدوا على تبييض التاريخ إذ قال إن أفريقيا هي القارة الوحيدة التي لم تصنع تاريخاً . لن يستطيع توينبي كتابة ذلك بعد الآن لأن الحقائق قد اتضحت .

لن أنسى ما حييت الصدمة التي حدثت لي عندما بدأت أقرأ عن فظائع الرق الكاملة . تركت قصص تلك الفظائع انطباعاً شديداً في نفسي لدرجة أنها كانت من مواضيعي المفضلة حينما أصبحت من دعاة مستر محمد . أبشع جريمة في تاريخ العالم ، صورة الجرم والدم يملآن أيد الرجل الأبيض ، شيء لا يصدق! فتحت عيني كتب مثل كتاب فردريك أولمستد على الفظائع التي قاسى منها العبيد عندما وطأت أقدامهم الولايات المتحدة . كذلك وصفت المرأة البيضاء ، فاني كمبال ، التي تزوجت من مالك للعبيد ، كيف ينحط الإنسان . وبالطبع قرأت **كوخ العم توم** وهي الرواية الوحيدة التي قرأتها منذ أن بدأت القراءة الجادة .

شملت مجموعة باركهيرست أيضاً منشورات مجلدة من كتابات جمعية محاربة الرق في نيو إنجلاند . قرأت وصف الشنائع ورأيت صور النساء السود المسترقات مقيدات

obeikan.com

والسياط تهوي على ظهورهن ، أمهات سوداوات ينظرن إلى أطفالهن وهم ينزعون منهن حيث لن يرونهم بعد ذلك ، صور كلاب تتعقب العبيد ، وصور متعقبي العبيد الهاربين – بيض أشرار يحملون السياط والهراوات والسلاسل والبنادق . قرأت عن الواعظ المسترَق نات تيرنر ، الذي أدخل الخوف من الله في قلوب البيض ملاك الرقيق . تيرنر لم يكن واعظاً من النوع الذي يعد الزنوج بالجنة أو يدعوهم إلى إدارة الخد الأيسر واللاعنف لتحرير أنفسهم ولكن إلى حمل السلاح – هنالك في ولاية فرجينيا في أحد ليال عام ١٨٣١ بدأ نات تيرنر مع سبعة عبيد آخرين بدخول منزل سيده أولا ثم انتقلوا بعد ذلك من بيت إلى بيت في تلك القصور وعندما انتهى الليل كانوا قد قتلوا ٥٧ من البيض وبلغ عدد أتباع تيرنر من الزنوج سبعين شخصاً . فر البيض من بيوتهم خوفاً على حياتهم ، أغلقوا الأماكن العامة عليهم أو هربوا إلى الغابات بل إن بعضهم ترك ولاية فرجينيا كلية ومضى شهران قبل أن يتمكن جيش صغير من الجنود من القبض على نات تيرنر وإعدامه . في مكان آخر قرأت عن كيف أوحت أعمال نات تيرنر لجون براون بعد ثلاثين عاماً من ذلك أن يغزو ولاية فرجينيا ويهاجم الباخرة فيرى ومعه ثلاثة عشر رجلاً أبيض وخمسة زنوج .

قرأت كتابات هيرودوتس « أبي التاريخ » أو قرأت عنه على الأصح كما قرأت تاريخ الأمم الأخرى ففتح ذلك عيني تدريجياً في البداية ثم أكثر وأكثر على حقيقة أن الرجل الأبيض في كل مكان يذهب إليه كان يسلك سلوك الشيطان ، ينهب ويغتصب ، يدمي ويمتص دماء كل من لم يكن أبيض . قرأت كتباً مثل كتاب ويل دورانت عن تاريخ الحضارة الشرقية الذي روى فيه كفاح المهاتما غاندي لطرد البريطانيين من الهند .

الكتب التي قرأتها ، كتاب من وراء كتاب ، أوضحت لي كيف أن الرجل الأبيض جلب على سود وسمر وحمر وصفر هذا العالم كل أنواع العذاب والاستغلال. رأيت كيف أنه ومنذ القرن السادس عشر، كان التاجر المسيحي يجوب البحار طمعاً في ممتلكات الإمبراطوريات الآسيوية والأفريقية لنهبها والسيطرة عليها . قرأت كيف أن الرجل الأبيض وهو يدعو إلى المسيح بين غير البيض ، لم يدع إليه كما ينبغي وكما تقول المسيحية ، بالتواضع والموعظة الحسنة .

صرت أنظر إلى الرجل الأبيض جماعيًّا وأراهم كمجموعة ليسوا إلا قراصنة وانتهازيين استعملوا طرقاً شيطانية أصبحت المسيحية بموجبها مجرد ستار لغزواته الإجرامية. كان الرجل الأبيض يبدأ بأن يقول عن أصحاب تلك الحضارات القديمة غير البيضاء أنهم وثنيون أو ملاحدة وبذلك يجد لنفسه مبرراً ليهاجمهم بالسلاح . وكما درست من تلك الكتب كان يعيش في الهند نصف بليون شخص لهم دينهم وحضارتهم فدخل عليهم البريطاني الأبيض واستعمل الوعود والخديعة والسيطرة حتى أنه بقدوم عام ١٧٥٩ كان معظم الهند يحكم بواسطة شركة شرق الهند

البريطانية . بدأت بعد ذلك الإدارة البريطانية الطفيلية تنتشر كالإخطبوط حتى غطت نصف شبه القارة الهندية . وفي عام ١٨٥٧ تمرد بعض الهنود على البريطانيين – وباستثناء تجارة الرقيق في أفريقيا – لم يسجل التاريخ مجزرة بشرية لا داعي لها مثل تلك التي أنزلها البريطانيون على الهنود إثر ذلك .

أما تجارة الرقيق من أفريقيا إلى أمريكا فقد قُدر أن مائة وثلاث عشرة مليون نفس ، أي ما يعادل سكان الولايات المتحدة في عام ١٩٣٠ ، قد هلكوا أو استرقوا في تلك التجارة . وعندما ابتدأ سوق الرقيق يزدحم اجتمعت القوى الأوروبية – آكلة لحوم البشر – واختط كل منهم لنفسه قطعة من القارة الأفريقية بل من أغنى مناطقها كمستعمرة له ولمدة قرن بعد ذلك كانت القوى الأوروبية تتقاسم وتتبادل أراضي أفريقيا من القاهرة حتى رأس الرجاء .

غرقت في الكتب لدرجة أن كل حراس السجن لم يكونوا ليستطيعوا أن ينتزعوني منها. وحتى كتابات الإيْجا محمد لم تكن لتعبر عما يريد وتقدم البراهين مثلما عبرت وبرهنت هذه الكتب كيف أن الرجل الأبيض كان شيطانياً في علاقاته مع غير البيض . وعندما أسمع في المذياع هذه الأيام أو أقرأ في الصحف عن خوف الرجل الأبيض الجماعي وقلقه من الصين وعن استغراب الرجل الأبيض لكراهية الصينيين له ، يقفز ذهني إلى ما قرأت في السجن عن كيف أن أجداده البيض اغتصبوا الصين عندما وثقت بهم الصين الضعيفة وكيف أن التجار المسيحيين بعثوا بملايين الأرطال من الأفيون إلى الصين إلى درجة أن تحول ملايين الصينيين إلى مدمنين بنهاية عام ١٨٣٩ مما دعا حكومة الصين إلى القيام بإعدام ٢٠ ألف صندوق من الأفيون . أدى ذلك إلى إعلان أول حرب أفيون في التاريخ . تخيل إعلان حرب على أمة رفضت قبولها للمخدرات – انهزم الصينيون هزيمة نكراء مع أنهم أول من اخترع البارود .

فرضت اتفاقية نانكنج على الصين أن تدفع للرجل الأبيض تعويضاً عن الأفيون الذي أعدمته وأن تفتح موانئها الرئيسية أمام التجارة البريطانية واستقطعت منها هونج كونج كما أزيلت أو خفضت الضرائب الجمركية الصينية لتغمر البضائع البريطانية أسواق الصين وبذلك وئدت الصناعة الصينية في مهدها .

بعد حرب الأفيون الثانية أصبحت تجارة الأفيون تجارة شرعية بمقتضى اتفاقيات تينتسن التي أيضاً أعطت شرعية للتحكم البريطاني – الفرنسي – الأمريكي في جمارك الصين وحينما حاولت الصين تأخير التصديق على تلك الاتفاقيات هوجمت بكين واستبيحت . كان شعار حرب الصين هو « أقتلوا الشيطان الأجنبي الأبيض » في انتفاضة البوكسرز عام ١٩٠١ وعندما انهزم الصينيون تم طردهم من أجمل مناطق بكين . أخذها الأبيض القاسي المتعجرف ثم وضع تلك اللافتة المشهورة : «ممنوع دخول الصينيين والكلاب ».

بعد الحرب العالمية الثانية أغلقت الصين حدودها في وجه العالم الغربي الأبيض وقامت بحملات ومجهودات كبيرة في مجال العلم والصناعة والزراعة كما وصفت ذلك مجلة لايف الأمريكية في عدد حديث. وقد أفاد بعض المعلقين الذين زاروا الصين حديثاً ، أن العالم لم ير حملة كراهية ضد البيض مثل تلك التي تعم أرجاء البلد غير الأبيض الذي سيبلغ عدد سكانه في خمسين سنة نصف سكان العالم إذا استمر معدل تزايد السكان الحالي. كذلك يبدو أن الصين ستنتقم لنفسها مع نجاح تجاربها الذرية .

دعنا نواجه الحقيقة . أننا نرى اليوم في الأمم المتحدة نظاماً عالميًّا جديداً يولد ونرى العالم وقد بدأ ينقسم لونياً والدول غير البيضاء تدخل في تحالف مع بعضها . رأينا مندوب أمريكا في الأمم المتحدة قبل زمن قليل يشتكي من أن هنالك « لعبة جلد » بدأت تلعب في الأمم المتحدة وهو على حق فقد بدأ يواجه الحقيقة . نعم هنالك « لعبة جلد » ولكن ستفنسون في دعوته تلك إنما يذكرني بالكاوبوي المشهور جيسي جيمس وهو يتهم عمدة البلدة بحمل السلاح. لأنه ليس في العالم من لعب لعبة الجلد هذه كما لعبها الرجل الأبيض .

لم يكن مستر محمد ، الذي كنت أكتب له يوميًّا ، يعلم شيئاً عن العالم الذي تفتح أمامي وأنا أحاول إثبات صحة تعاليمه من خلال ما في الكتب .

عندما اكتشفت الفلسفة حاولت أن ألم بأهم التطورات الفلسفية . بدأت بقدامى الفلاسفة الغربيين والشرقيين ، ووجدت نفسي أميل إلى الفلاسفة الشرقيين . ثم اكتشفت أن الفلسفة الغربية مستقاة من فلسفة الشرق . سقراط تجول في مصر وتقول بعض المصادر أنه قد كُشفت له هنالك أسرار العلوم الفرعونية وليس هنالك شك في أنه اكتسب بعض الحكمة من حكماء مصر القديمة .

كثيراً ما أفكر في الآفاق التي فتحتها أمامي دنيا المطالعة في السجن وكان واضحاً لي أنها غيرت مجرى حياتي للأبد . المقدرة على القراءة أهاجت فيني ولعاً دفيناً لأن أحيا ذهنيًّا. لم أكن أجري خلف شهادة مثل التي تمنحها الجامعات لطلابها الباحثين عن المركز الاجتماعي ، ولكنها دراسة « من منازلهم » ومع كل كتاب جديد قرأته كنت أشعر أكثر بمدى الجهل وعمى البصيرة والبكم الذي يعيش فيه الرجل الأسود في أمريكا . وقبل مدة اتصل بي هاتفياً كاتب إنجليزي ليسألني « من أي جامعة تخرجت ؟ » أجبته بأنها جامعة « الكتب» واليوم لن تجدني في لحظة فراغ حتى ولو كانت خمس عشرة دقيقة إلا وأنا أطالع شيئاً ما عله يفيدني في معركة تحرير الرجل الأسود .

بالأمس تكلمت أمام مجموعة في لندن وفي الطريق ذهاباً وإياباً عابراً الأطلنطي ، كنت أدرس وثيقة عن مشروع للأمم المتحدة لضمان الحقوق الإنسانية للأقليات المضطهدة في العالم . والرجل الأسود في أمريكا مثال مخجل لاضطهاد الأقليات لكن

الشيء الذي يجعل السود في أمريكا يعتقدون أن مشكلتهم هي مسألة داخلية بحتة تخص الولايات المتحدة فقط ، هو كلمتان اثنتان هما « الحقوق المدنية.» كيف للرجل الأسود أن يتحصل على حقوقه المدنية قبل أن يتحصل على حقوقه الإنسانية ؟ إذا بدأ الرجل الأسود يفكر في كيفية تحقيق حقوقه الإنسانية أولاً وأنه جزء من أعظم البشر في التاريخ ، فسيرى أن وضعه يجب أن يعرض على الأمم المتحدة .

ليست هنالك حالة أكثر استحقاقاً للعرض على الأمم المتحدة من حالة الرجل الأسود. أربعمائة عام من الدم والعرق بذلت في إعمار أمريكا ومع ذلك يتسول الرجل الأسود طالباً ما يلقاه كل مهاجر أبيض جديد بمجرد دخوله أمريكا .

دعنا نعود إلى سؤال الكاتب الإنجليزي الذي أخبرته أنني تخرجت من الكتب ومن مجموعة طيبة منها . كل مرة عندما أركب طائرة أحمل كتاباً وددت قراءته سلفاً ولم يسعفني الزمن قبل ذلك وفي هذه الأيام هنالك كتب كثيرة أود قراءتها . ولولا ما تأخذه ظروف النضال من وقتي ، لقضيت كل ما بقى لي من العمر في القراءة إذ لا يوجد شيء في العالم لا أود أن أعرف عنه شيئاً ولا أظن أن هنالك شخصاً استفاد من السجن مثلي . والحق يقال لقد مكنني السجن من أن أتعمق في دراستي أكثر مما كان سيتاح لي حتى لو كنت درست دراسة عادية في الجامعة وعلى العكس من السجن ، توجد في الجامعة كثير من الأشياء التي تلهي الشاب عن الدراسة مثل الجمعيات والحفلات والرحلات عدا النشاطات غير الجادة . هل هناك مكان آخر كنت سأستطيع فيه أن أدرس لمدة خمس عشر ساعة كل يوم وأمحو بذلك جهلي ؟ لا أظن .

من الطبيعي أنني قرأت شوبنهاور ونيتشه وأنا لا أذكر هذه الأسماء إعجاباً ولكني فقط أحاول هنا أن أتذكر أسماء بعض أصحاب النظريات التي هضمت . ينسب إلى هؤلاء وضع الأساس الفلسفي للفاشية والنازية . لم أعجب بهم ، لأنني وجدت أنهم قضوا جل وقتهم يتجادلون حول أشياء غير ذات أهمية ويذكرني هؤلاء بكثير من مثقفي الزنوج اليوم الذين قابلتهم فهم أبداً يتجادلون حول أشياء لا طائل من وارئها .

أعجبت بالفيلسوف سبابنوزا لمدة عندما عرفت أنه أسود . يهودي أسباني أسود . تبرأ منه اليهود لأنه نادى بوحدة الوجود كالقول بأن « الله هو الكل » « والكل هو الله » صلى اليهود عليه صلاة الجنازة قبل مماته باعتبار أنه ميت بالنسبة لهم وأخرجت أسرته من أسبانيا ومنها أقاموا في هولندا فيما أظن .

سأقول لك أن الفلسفة الغربية في مأزق وأن الرجل الأبيض أدخل نفسه كما أدخل الرجل الأسود في كذبة كبيرة واليوم يجد نفسه في طريق مسدود . أملت ذلك على الرجل الأبيض بالضرورة خطته التي وضعها لتعتيم التاريخ ودور الرجل الأسود فيه . واليوم يواجه الرجل الأبيض ما يحدث في القارة الأفريقية السوداء وجهاً لوجه . أنظر إلى الآثار التاريخية التي تكتشف هنالك يوماً بعد يوم والتي تبرهن المرة بعد الأخرى كيف كانت

للرجل الأسود حضارات رائعة وعظيمة وإنسانية قبل أن يخرج الرجل الأبيض من الكهوف . في جنوب الصحراء ، في الأماكن والبلاد التي اختطف منها معظم زنوج أمريكا الحاليين ، يزال التراب كل يوم عن مهارات يدوية وتماثيل وأشياء من أبدع ما رأى الإنسان وبعض هذه الآثار تشاهد اليوم في متحف مدينة نيويورك للفن الحديث . مصنوعات ذهبية شديدة الاحتمال والجمال لا ينافسها في ذلك شيء . أدوات قديمة صنعتها أيد سوداء .... شذبتها تلك الأيدي السوداء حتى غدت بدون منافس اليوم .

لقد تم تبييض التاريخ لدرجة أن أساتذة الجامعات السود لا يعرفون عن عبقرية وثقافة وحضارات الجنس الأسود في الزمن الغابر أكثر مما يعرفه أي أسود . لقد حاضرت في بعض جامعات الزنوج وكنت أفاجأ بأن أجد بعض حملة الدكتوراه ودرجاتهم العلمية تجرجرها حمالات سراويلهم ، يجرون إلى صحف الرجل الأبيض ليصفونني « بالمتطرف الأسود» إنهم يعيشون خلف الأحداث خمسين عاماً . لو كنت مدير إحدى هذه الجامعات لرهنت مباني الجامعة حتى أتمكن من إرسال بعض هؤلاء الطلاب للقيام بحفريات أثرية في أفريقيا لإخراج المزيد والمزيد من البراهين على عظمة تاريخ الرجل الأسود . ذلك ما يفعله الرجل الأبيض الآن واليوم إذا ما تعثر فيل في مجاهل أفريقيا سيصطدم بعالم آثار أبيض وهو يحفر بمجرفه . ولا يمر أسبوع إلا ونسمع عن اكتشاف جديد عن حضارات أفريقيا المنسية . كل ما تغير هو موقف الرجل الأبيض لأن تلك الحضارات كانت مدفونة في القارة السوداء منذ زمن غابر .

على سبيل المثال هنالك عالم أنثروبولوجيا بريطاني يدعى د. لويس س. ب. ليكي يعرض حالياً بعض العظام المتحجرة – قدم ، جزء من يد ، حنك وقطع من الجمجمة. وعلى أساسها يدعو د. ليكي إلى إعادة كتابة تاريخ أصل الإنسان كلية – تلك العظام لإنسان عاش ١٫٨١٨٫٠٣٦ عاماً قبل ميلاد المسيح وقد وجدت في تنجانيقا في القارة السوداء .

إنها لجريمة أن تنطلي هذه الكذبة على أجيال من البيض والسود وأن يترعرع الأطفال السود الأبرياء وآباؤهم يعتقدون أن عنصرهم ليس له مكان في التاريخ . أطفال سود صغار يرون آباء يظنون أن جنسهم منحط وذلك قبل أن يتعلم أولئك الأطفال المشي . أطفال سود أبرياء يعيشون حياتهم من المهد إلى اللحد وخلال كل ذلك يخجلون من كونهم سوداً – ولكن الحق قد بدأ ينجلي أخيراً .

هنالك تجربتان أثرتا على تفكيري وحياتي كثيراً بعد أن فتحت عيناي في السجن . أولاهما هي أول تجربة لي في تبصير إخوتي السود مغسولي الدماغ بحقيقة جنسهم والأخرى هي دخولي في المناظرات الأدبية الأسبوعية التي كانت بمثابة تدشين لي في دنيا المحاضرات العامة .

أود أن أعترف هنا بحقيقة أخجل منها . كنت في السابق أميل إلى الرجل الأبيض

لدرجة أني كنت أكره التفاف الزنوج حول بعضهم في السجن. ولكن بعد أن غيرت تعاليم مستر محمد نظرتي نحو إخوتي السود صرت لا أدع فرصة تفوتني لأجندهم للانضمام لمستر محمد. غير أن كشف الحقيقة لرجل لم يسمع أبداً عن حقيقة نفسه وأصله وحقيقة الرجل الأبيض كان شيئاً يتطلب الحذر واللباقة وقد أخبرني أخي ريجنالد أن كل المسلمين يتعرضون إلى مثل تلك الصدمة قبل تجنيدهم – لقد غسلت أدمغتهم لدرجة أن إجلاء الحقيقة قد ينفرهم في البداية ولذا نصحني ريجنالد أن أتدرج في ذلك وأن أنتظر فترة حتى يستوعب الواحد منهم ما قدم له قبل أن تنتقل إلى خطوة أخرى.

بدأت الحديث مع إخوتي من الزملاء السود عن تاريخ الرجل الأسود وعن أشياء لم يسمعوا بها أبداً من قبل. أخبرتهم عن حقيقة وبشاعة تجارة الرقيق أشياء لم يسمعوا بها من قبل. كنت أراقب وجوههم وأنا أخبرهم كيف أن الرجل الأبيض قد مسح من عقولهم أية معرفة لهم بتاريخهم لدرجة أن الواحد منهم لا يعرف لقبه الحقيقي أو اسم القبيلة التي أتى منها: الماندنيجا، الولوف، السرر، الفولاني، الفانتي، الأشانتي، والأخريات. كنت أقول لهم أن بعض الرقيق الذين أحضروا إلى أمريكا كانوا مسلمين ويتحدثون العربية. كثير من المساجين لن يصدقوا مثل ذلك القول إلا إذا جاءهم من رجل أبيض ولذا كنت كثيراً ما أقرأ لهم مقتطفات عن ذلك من كتابات رجل أبيض. كنت أقول لهم أن بعض الرجال البيض، خاصة العلماء منهم، يعرفون الحقيقة ولكن لأن هنالك مؤامرة تاريخية، لا تكشف تلك الحقيقة للعامة.

كنت أراقب ردة فعلهم وكان عليّ أن أكون حذراً لأن أحد هؤلاء الزنوج مغسولي الدماغ المنافقين قد يذهب ويوشي بي عند الرجل الأبيض. وعندما يبدو لي أن أحدهم كان جاهزاً أقوده بعيداً عن الآخرين وألقي عليه برسالة الإليجا محمد: الرجل الأبيض هو الشيطان.

كان ذلك يصدمهم إلى أن يبدأوا في التفكير في معناها.

قد يكون هذا أحد الأشياء التي تقلق سلطات السجون الأمريكية اليوم – الطريقة التي أصبحت بها تعاليم المسلمين السود تنتشر في البلاد ويتحول بها كثير من السجناء السود إلى تعاليم مستر محمد خاصة إذا علمنا أن نسبة السود بين السجناء أكبر كثيراً من نسبتهم بين السكان. ويعود انتشار هذه الدعوة بينهم إلى كون السجناء السود أكثر تهيئاً لقبول مقولة أن الرجل الأبيض هو الشيطان.

قل ذلك اليوم لأي زنجي ما عدا من يسمون بالمثقفين المهووسين «بالاندماج» أو لأي من الرجال السود الذين هم بخلاف ذلك سمان راضون، صم، بكم، عمي يلتقطون الفتات التي يرمي بها لهم الرجل الأبيض من مائدته، وستجد أنك أصبت وتراً حساساً في الرجل الأسود. قد يستغرق يوماً قبل أن يستجيب لك أو شهراً أو سنة حتى وقد لا يستجيب ظاهريًا ولكني أؤكد لك أنه عندما يفكر في حياته

شخصياً سيرى كيف ومتى وأين مثل معه الرجل الأبيض دور الشيطان .

كما قلت ، السجين الزنجي أول من يستجيب – رجل أسود وضعه الرجل الأبيض خلف القضبان لسنين عديدة والسجين الأسود عادة يأتي من طبقات الزنوج الدنيا الذين عوملوا طوال حياتهم وكأنهم أطفال ، زنوج لم يقابلوا أبيض إلا وأخذ منهم أو فعل لهم شيئاً . دع هذا السجين يفكر كما حدث لي أول ما سمعت تعاليم الإليجا محمد ، دعه يفكر الآن في طموحه حينما كان صغيراً وأحلام دراسة الطب والمحاماة والعلوم . دعه يفكر فسيعرف كما حدث لي كيف أن ملايين الزنوج كانوا وما زالوا منذ وصول أول سفينة رقيق إلى اليوم كالشياه في وكر الذئاب . ذلكم هو السبب أن المساجين السود انضموا أفواجاً حينما بلغتهم تعاليم الإيْجا محمد وهم خلف القضبان بواسطة زملائهم السجناء الآخرين . « الرجل الأبيض هو الشيطان » ، ذلكم صدى تجربة عمر عند السجناء السود .

رويت لكم أن المناظرة الأدبية كانت حدثاً أسبوعياً في السجن وبينما عقلي يكاد ينفجر من ضغط المعلومات من قراءاتي ، كان عليَّ أن أجد طريقة أقول بها للرجل الأبيض حقيقة شعوري نحوه في وجهه ورأيت أن بإمكاني أن أفعل ذلك بتسجيل اسمي كمناظر .

لم يخطر ببالي أبداً في سابق حياتي أن أتكلم أمام الجمهور . عندما كنت في الشوارع ألهث وأسرق وأبيع المخدرات وحتى عندما كان يسيطر عليَّ الحشيش كنت أحلم بأشياء مختلفة ولكنني لم أحلم أبداً بأنني سأتكلم في الاستادات والقاعات ، في أعظم الجامعات الأمريكية ، في المذياع والتلفاز ، هذا عدا التحدث في مصر وأفريقيا وإنجلترا . ولكني أقول لكم أن تجربة المناظرة والتحدث أمام جمهور في السجن كانت تجربة مبهجة ومنعشة لي مثل اكتشافي المعرفة من خلال القراءة . الوجوه متراصة أمامي والأفكار تتزاحم في رأسي والكلمات تخرج من فمي بينما عقلي يعمل ويبحث عن جملتي التالية وهل سأكسبهم إلى جانبي بالطريقة المطلوبة والعرق يتصبب من رجلي وأنا أواصل النقاش . كنت أدرس الموضوع من جانبيه وأقرأ كل ما تقع عليه عيناي عن ذلك الموضوع ثم أضع نفسي في وضع مناظري من الجانب الآخر وأقرر ما هي الإستراتيجية التي سأتبعها لو كنت في مكانه ثم أحضر ردودي لدحر نقاطه . وإذا ما وجدت أي صلة مهما كانت بعيدة ، سأشير إلى شيطانية الرجل الأبيض.

« التجنيد الإجباري – نعم أم لا ؟ » ذلك كان عنوان النقاش الذي أتيح لي أن أشترك فيه مرة فيما أذكر وكانت فرصة مفاجئة لي . أثار مناظري ضجة بقوله : إن رمي الأثيوبيين الطائرات الإيطالية بالصخور والحراب دليل على ضرورة التجنيد الإجباري الطبيعية . رددت عليه بأن القنابل التي باركها البابا في روما رشت الدم

الأثيوبي على الأشجار وأن الأثيوبيين لو استطاعوا لرموا بأجسادهم العارية على هذه الطائرات لأنهم رأوا أنهم إنما يحاربون الشيطان مجسداً .

هتفوا « مخالفة !» واتهموني بأني أحول الموضوع إلى نزاع عنصري. قلت : إنني لا أتحدث عن العنصرية وإنما عن الحقائق التاريخية وأن عليهم أن يقرأوا كتاب بيير فإن باسن **أيام من أعمارنا** . لم أندهش عندما اكتشفت أن ذلك الكتاب اختفى من المكتبة بعد تلك المناظرة .

عاهدت نفسي وأنا في السجن أن أقضي بقية عمري أقول للرجل الأبيض حقيقته أمام عينيه ، أو أموت دون ذلك . وفي مناظرة عن هومر : أعاش حقيقة أم أنه مجرد وهم ؟ رميت أمام الوجوه البيضاء النظرية التي تقول إن هومر مجرد رمز لسرقة أوروبا للأفريقيين السود ثم حجبها لأبصارهم حتى لا يستطيعوا العودة لأهلهم . (هومر وعمر ومور أسماء ذات صلة ببعضها مثل بيتر وبدرو وبيترا وثلاثتها تعني الصخر.) علم الأوروبيون هؤلاء الموريين (الاسم الأول لسكان أفريقيا) العمي أن يتغنوا بإنجازات الأوروبيين المجيدة . أوضحت لهم أن تلك هي فكرة الرجل الأبيض عن التسلية . وخرافات إيسوب المشهورة ليست إلا مثالاً آخراً لأن إيسوب هو الاسم الإغريقي للأثيوبي .

أذكر نقاشاً حاداً آخر اشتركت فيه وكان عن شكسبير ولم يكن ذا صلة بالعنصرية .. ولكنني فقط أثارتني المعضلة الشكسبيرية . تعتبر ترجمة الملك جيمس للإنجيل أعظم عمل في الأدب الإنجليزي ويفترض أن لغتها أسمى لغة في الإنجليزية «الملكية.» حسناً ، لغة شكسبير ولغة الإنجيل إذن وجهان لعملة واحدة ويقال أن الملك جيمس فيما بين عام ١٦٠٤ و١٦١١ جعل الشعراء يترجمون الإنجيل ويكتبونه . إذن إذا كان شكسبير موجوداً حقاً فسيكون حتماً على رأس قائمة أولئك الشعراء ولكن لا تذكر لشكسبير صلة بالإنجيل . السؤال هو إذا كان شكسبير موجوداً فعلاً فلماذا لم يستخدمه الملك في الترجمة ؟ وإذا كان قد استخدمه كيف يعقل أن يبقى ذلك سراً حتى اليوم؟

أعلم أن كثيرين يقولون أن فرنسيس بيكون هو شكسبير وإذا كان ذلك حقاً فلماذا يخفيه بيكون ؟ لم يكن بيكون من الأسرة المالكة حتى يستعمل اسماً مستعاراً حينما كانت الأسر المالكة تترفع من الكتابة الفنية والمسرحية . ولم يكن بيكون ليخسر شيئاً من إعلان اسمه وعلى العكس كان سيجني فائدة كبيرة .

كنت أجادل بأن الملك جيمس هو نفسه الشاعر الحقيقي الذي استعمل الاسم المستعار: شكسبير . الملك جيمس كان متقد الذكاء وأعظم من جلس على عرش بريطانيا ولم يكن بين أفراد الأسرة المالكة في زمنه من له العبقرية التي تجعله يكتب روايات شكسبير . إنه هو نفس الشاعر الذي كتب الإنجيل وهي نفسها النسخة التي حكمت العالم .

عندما كان ريجنالد يزورني في السجن ، كنت أتحدث إليه عن البراهين الجديدة التي جمعتها لإثبات تعاليم المسلمين . كنت قد قرأت في المجلد رقم ٤٣ أو رقم ٤٤ من مجلدات هارفارد الأدبية رواية **الجنة المفقودة** التي كتبها ملتون والتي يحكي فيها عن الشيطان الذي يحاول العودة إلى الجنة بعد طرده منها . كان الشيطان يغرر بالقوى الأوروبية في شخص البابا وشارلمان ورتشارد قلب الأسد وفرسان آخرين . فسرت لهم ذلك بأن أوروبا يحركها ويقودها الشيطان في شخص إنسان وأن ما يقوله ملتون هو نفس ما يقوله الإلايْجا محمد .

فاجأني ريجنالد عندما بدأ يتحدث بسوء عن الإلايْجا محمد . لا أذكر كلماته بالضبط ولكنها كانت اتهامات إيحائية ضد الإلايْجا محمد ظهرت في نبرة ونظرات ريجنالد أكثر من كلماته .

لم أكن مستعداً لذلك ووجدت نفسي مشوش الفكر. أخي ، شقيقي وموضع ثقتي، أخي الذي أحترمه وأجله والذي أدخلني في أمة الإسلام يقول ذلك ؟ لم أصدق ما سمعت ! لقد أصبح الإسلام يعني كل شيء بالنسبة لي . الإسلام والإلايْجا محمد بدلا حياتي .

علق الإلايْجا محمد ، كما علمت ، عضوية ريجنالد في أمة الإسلام لأنه لم يتحكم في شهواته . بعد أن انجلى له الحق وقبل الحكم والأحكام الإسلامية ، كانت ما زالت له علاقة غير شريفة مع سكرتيرة معبد نيويورك . أوشى به بعض المسلمين الذين نمى ذلك إلى علمهم عند الإلايْجا محمد في شيكاجو فكان أن علق عضوية ريجنالد . تركني ريجنالد أتعذب وأبكي له وفي نفس تلك الليلة كتبت خطاباً لإلايْجا محمد أدافع فيه عن أخي واستحلفه أن يعيده إلى الشمل. أخبرته عن ما يعنيه ريجنالد بالنسبة لي وقرابته لي . وضعت الخطاب في الصندوق ليقرأه المراقب وظللت أصلي وأدعو الله طوال الليل ولا أظن أن أحداً أخلص في دعائه لله مثلي في تلك الليلة لكي يخلصني من التشويش الذي ألم بي .

في الليلة التالية وأنا جالس على سريري رأيت أمامي فجأة شخصاً يجلس قبالتي على المقعد وهو يرتدي حلة سوداء فيما أذكر . رأيته بوضوح كما أرى أي شخص . لم يكن أسود ولم يكن أبيض . كان لون بشرته أسمر فاتحاً ذا سحنة أسيوية وشعره أسود داهناً .

نظرت في وجهه مباشرة .

لم يتملكني خوف وكنت أعي أن الأمر لم يكن حلماً . بقيت ساكناً ولم أتكلم وكذلك لم يتفوه ذلك الشخص بكلمة . لم أميز جنسيته ولكنه لم يكن أوروبياً ولم أدر من هو . جلس هنالك بعض الوقت ثم اختفى فجأة مثلما جاء .

وصلني خطاب من مستر محمد عن موضوع ريجنالد يرد فيه على خطابي قال فيه :

«إذا كنت آمنت بالحق ثم تأتي وترتاب فيه كما تفعل الآن فإنك لم تؤمن حقًا في المقام الأول . ما الذي يجعلك ترتاب في الحق غير نفسك الضعيفة ؟ »

صدمني ذلك فريجنالد لم يكن يحيا حياة المسلم المنضبط . كان الإيْجا محمد على حق وكان شقيقي على خطأ لأن الصواب صواب والباطل باطل . لم أكن أعرف وقتها أن سيأتي يوم يتهم فيه أبناء الإيْجا محمد أباهم باقتراف نفس الآثام التي أدان بها ريجنالد وكثيرين آخرين – لكن في ذلك الوقت أزال خطاب محمد كل شكوكي وأنهى كل نفوذ وتأثير لأخي عليٍّ وصرت منذ ذلك اليوم أرى كل ما يفعله ريجنالد خطأ غير أن ريجنالد استمر يزورني وقد تغير حاله . عندما كان مسلماً كان أنيقاً ونظيف الملبس ولكنه أصبح الآن يأتي بالقمصان الداخلية والبنطال القذر وأحذية القماش . كنت أرى أنه في طريقه للنهاية وعندما يتحدث أستمع إليه ببرود لكنني أنصت إليه فهو ما زال شقيقي .

بدأت لعنة الله تحل على ريجنالد تدريجيًا وقد قال الإيْجا محمد : إن اللعنة ستحل بكل من يرفض أن يطيع أوامره . علمنا مستر محمد أن الإنسان يعيش في الظلام إلى أن يكتشف الإسلام وينجلي الحق أمامه وحينها سيعيش في النور عندما يؤمن ومن يرجع عن إيمانه بعد ذلك سيعاقبه الله . علمنا مستر محمد أن النجم الخماسي هو رمز العدل ورمز الحواس الإنسانية الخمس وأن الله يحقق العدل من خلال التأثير على هذه الحواس ضد من يثور على رسوله أو على الحق . بتلك الطريقة يعلم المسلمون مقدرة الله للدفاع عن رسوله ضد كل الأعداء طالما أن ذلك الرسول لم يحد عن الحق . كما علّمنا أن الله يشوش عقول المرتدين وظننت أن ذلك ما يتعرض له أخي .

وصلني خطاب من أخي فلبرت يخبرني فيه أن ريجنالد في ديترويت . لم أسمع عن ريجنالد بعد ذلك إلى أن زارتني إللا ذات يوم وبعد أسابيع من ذلك وأخبرتني أن ريجنالد نائم في منزلها بروكسبري – قالت إنها سمعت خبطاً على الباب ذات مرة وعندما قامت وفتحته وجدت أن الطارق هو ريجنالد ومظهره يدعو للرثاء فسألته من أين أتى فقال أنه أتى من ديترويت وعندما سألته كيف وصل إلى ديترويت أخبرها أنه أتى ماشياً على رجليه

صدقت إنه أتى ماشياً لأني آمنت بالإيْجا محمد وأن غضب الله قد حل بريجنالد وذهب بعقله ومقدرته على تقدير الزمن والمسافة . إن هنالك بعداً للزمن لا نفهمه نحن في الغرب وقد قال الإيْجا أن غضب الله إذا وقع يمكن أن يذهب بالحواس الخمس ويمكن أن يقلب الشعر أبيض في دقائق كما يمكن للإنسان أن يمشي لتسعمائة ميل ويظن أنها مائة خطوة . وكانت قد أصبحت لي لحية في السجن إلا أن ريجنالد حينما زارني كان يتحرك بعصبية ثم قال لي أن كل شعرة من لحيتي كانت أفعى . كان يرى الأفاعي في كل مكان . بعد ذلك أصبح ريجنالد يعتقد أنه إله ، يمشي في الشوارع ويقول للناس أن به روحاً قدسية كما عرفت من إللا ،

وتدرج في جنونه حتى أصبح يظن أنه الله .

قبضت السلطات على ريجنالد وأودعوه مصحة عقلية . لم يتبينوا ما به لأنهم لا يفهمون غضب الله . بعد مدة أطلقوه ثم أخذوه مرة أخرى ووضعوه في مصحة أخرى . واليوم يكاد ريجنالد أن يكون مؤسسة بحالها إلا أني لن أكشف لكم ذلك حتى لا أسبب له متاعب أكثر مما تحمل . وأنا اليوم أؤمن أن ذلك كان قدراً مكتوباً وأن ريجنالد كان مطية وطُعماً للوصول إلى الأعماق حيث كنت ولإنقاذي منها .

لم يكن هنالك من تفسير للأمر سوى ذلك في ذلك الوقت .

بعد ذلك بسنوات وحينما أصبح الإليْجا محمد نفسه موضع اتهام بجرائم أخلاقية ظهر لي أن ذلك لم يكن غضب الله قد حل بريجنالد ولكنه الألم النفسي الذي حل به عندما نبذه أهله مفضلين عليه الإليْجا محمد مما جعله ينقلب على الإليْجا ومعتقداته بجنون .

من المستحيل أن ترى شخصاً ما وتحلم به وأن تراه في الرؤيا بينما أنت لم تشاهده أصلاً ولكنك تراه كما هو . أن ترى شخصاً في رؤيا بمثل ما هو حقيقة ، تلك رؤيا مسبقة . في المستقبل صرت أؤمن بأن الشخص الذي رأيته في الرؤيا إنما كان ماسترو و. د. فارد ، النبي الخضر ، من قال الإليْجا أنه بعثه كآخر رسول للشعب الأسود في أمريكا الشمالية .

تم نقلي في آخر سنواتي في السجن مرة أخرى إلى سجن مدينة شارلستاون ويبدو أن بعض السجناء السود مغسولي الدماغ قد وشى بي وأنا متأكد أن رقابة السجن رفعت تقريراً عن مكاتباتي الشيء الذي أزعج مسئولي سجن مقاطعة نوفوك والسبب الذي قدموه لنقلي هو أني رفضت أخذ بعض الحقن لنوع من التطعيم الصحي . الشيء الوحيد الذي أقلقني كان اقتراب موعد النظر في إطلاق سراحي المشروط . غير أنني قدرت أنهم سينظرون إلى الأمر من وجهة نظر أخرى أي أنهم وبسبب نشري للإسلام سيفضلون إبعادي من السجن .

دخلت السجن في شارلستاون ونظري مائة على مائة ولكني الآن أعود إليه وقد أصبت بعلة اللابؤرية في النظر وأرتدي أول نظارات طبية لي وذلك بسبب قراءاتي الكثيرة في الضوء الخافت . لم أجد في شارلستاون نفس حرية الحركة والدعوة التي كنت أجدها في نوفوك ولكنني انضممت إلى مجموعة لدراسة الإنجيل عندما وجدت أن كثيراً من الزنوج ينخرطون فيها . كان يدير مجموعة الدراسة أحد طلبة علم اللاهوت من جامعة هارفارد وكان شاباً أشقر طويلاً ذا عيون زرقاء (أي مثال للشيطان) ولا أدري من منا تعمق في قراءة الإنجيل أكثر من الآخر ، أنا أم هو ؟ ولكن والحق يقال ، فقد كان يفيض حماساً لدينه . فكرت كثيراً في طريقة أهاجم بها حديثه علمياً حتى أجعل أولئك الزنوج يصدمون في تفكيرهم وربما

يهتدون . أخيراً وعندما كان يتكلم عن بولص الرسول أثناء أحد الدروس رفعت يدي طالباً الحديث فأعطاني الفرصة .

وقفت على قدمي وسألت : « أي لون كانت بشرة بولص ؟ » استمررت في الكلام مع وقفات قصيرة : « لابد أنه كان أسود .... لأنه كان يهودياً .... واليهود الأوائل كانوا ملونين .... أليس ذلك صحيحاً ؟ »

بدأ وجهه يحمر مثلما يحدث لكثير من البيض ثم قال : « نعم ».

لم أقف عند ذلك بل واصلت . « أي لون كان يسوع المسيح ؟ لقد كان يهودياً أيضاً .... أليس كذلك ؟ » .

تجمد السجناء في مقاعدهم ، السود منهم والبيض . ومهما كان السجين شديداً في مراسه فهو ليس على استعداد لأن يسمع أن المسيح لم يكن أبيض البشرة ولا يختلف في ذلك الشعور الزنجي مغسول الدماغ عن « الشيطان » المسيحي الأبيض . بدأ المحاضر يتمشى في أنحاء الغرفة . لم يكن هنالك ما يدعو للاستياء . بعد ذلك التاريخ وطوال سنوات حياتي الباقية لم أقابل شخصاً أبيض له شيء من الذكاء يصر على أن المسيح كان أبيض البشرة . أجاب المحاضر : « المسيح كان أسمر ».

قبلت ذلك الحل الوسط .

وكما توقعت لم تمض أربع وعشرون ساعة إلا وكانت القصة مضغة في أفواه النزلاء، بيضاً وسوداً . كنت أشعر بهم يشيرون إليَّ عندما يرونني . وعند أول فرصة أجدها لتبادل بعض الكلمات مع سجين أسود كنت أقول له : « يا صاح ، هل سمعت عن شخص يدعى الإيْجا محمد ؟ » .